معاني الحروف ودلالتها في كتاب «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي

علي دسودي
أستاذ مساعد في جامعة المذاهب الاسلامية
طهران- جمهورية ايران الاسلامية

ترجمته:

هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرّباط بن علي الخرباوي، محدث وأديب وعروضي وهو اللغوي الفقيه، الكاتب المجاهد[١] والخرباوي نسبة إلى قرية (خربة روحا) من أعمال البقاع[٢] والبقاعي نسبة إلى البقاع في سوريا، وتسمى بقاع كلب قرب دمشق الشام[٣].

رحلاته العلمية:

تلقى البقاعي علومه الأولى على يد والده قبل وفاته، فحفظ القران الكريم، والفقه وعلومه منذ نعومة أضافره، وقد غدت حياته حافلة بها، ولا غرابة أن يطوف البقاعي في بلاد العالم، راحلا للأخذ عن العلماء والازدياد من علوم القران[٤].

فقد رحل البقاعي إلى القدس، سنة اثنتين وثلاثون وثمانمائة وسمع بها ودرس على

(١) ينظر معجم المفسرين: ١/ ١٧ والضوء اللامع: ١/ ١٠١ وكشف الظنون: ٤٤٤ والأعلام: ١/ ٥٠ ومعجم المؤلفين: ١/ ٧١ والبقاعي ومنهجه في التفسير: ١٢ والأساليب البلاغية في نظم الدرر: ٧.
(٢) ينظر الضوء اللامع: ١/ ١٠١.
(٣) الأعلام: ١/ ٥٠.
(٤) ينظر شذرات الذهب ٧/ ٣٣٩ والبقاعي ومنهجه في التفسير ١٤.

يد الشيخ الغز بن عبد السلام المقدسي (ت٨٤٦ هـ) ولازم مجموعة من علماء عصره، ثم دخل إلى القاهرة، ولازم القاضي شهاب الدين ابن حجر العسقلاني(ت٨٥٢هـ) ثم رحلا معا إلى حلب سنة ست وثلاثين وثمانمائة فسمع بها، وأخذ من علمائها ثم واصل مسيرة رحلاته طلبا للعلم إلى دمشق والقدس والخليل وحمص، ثم زار الطائف وأخذ من علمائها، ثم المدينة المنورة فسمع بها، ثم عاد إلى القاهرة، وتفقه بها على يد شرف الدين الونائي (ت٨٤١هـ) وشمس الدين القاياني (ت ٨٦١هـ) ومما لاشك فيه، من خلال رحلاته اتصل بأعلام البلاد في زمانه واخذ منهم وأخذوا منه وما بلغ من العلم إلا بفضل رحلاته[٥].

شيوخه:

لقد كان البقاعي كثير التطواف لطلب العلوم، ولأجل هذا فانه قد تعددت شيوخه وأساتذته، وليس هذا محل ذكرهم، وسوف أقتصر على إيراد أسمائهم لأن الباحث أكرم عبد الوهاب قد تناولهم بالتفصيل[٦]:

١. الشيخ الحافظ شمس الدين محمد بن محمد الجزري الدمشقي الشافعي ت (٨٣٣ هـ).
٢. شيخ الإسلام قاضي القضاة الحافظ أبو الفضل احمد بن حجر العسقلاني ت (٨٥٢هـ).
٣. شيخ الإسلام قاضي القضاة شمس الدين محمد بن علي بن محمد القاياتي (ت٨٦١هـ).
٤. الشيخ أبوالفضل محمد بن محمد المشدّالي المغربي المالكي(ت٨٦٥)[٧].
٥. العلاّمة تقي الدين أبو بكر محمد الحصني الشافعي (ت ٨٨٣هـ).

تلاميذه:

للبقاعي طلاب كثيرون أخذوا عنه، وأنتهلوا من علومه ولأجل بيان ذلك نعرج على

(٥) ينظر الضوء اللامع: ١/ ١٠٢ -١٠٧ والبقاعي ومنهجه في التفسير: ١٤ والأساليب البلاغية في نظم الدرر: ٧ -٨.
(٦) البقاعي ومنهجه في التفسير: ٣١
(٧) معجم المؤلفين ١١/ ٢٩٧.

ذكر جملة من هؤلاء الطلاب الذين تتلمذوا عليه[٨]:

١. الشيخ العلاّمة عبد القادر بن محمد بن عمر الرحلة (ت٩٢٧هـ).

٢. شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الحمصي (ت٩٣٤هـ).

٣. العمدة الحجة القاضي رضي الدين أبو الفضل محمد بن محمد الغزي الدمشقي الشافعي (ت٩٣٥هـ).

٤. العلاّمة شمس الدين محمد الدلجي العثماني الشافعي (ت٩٤٧ هـ).

آثاره:

قد تنوعت مؤلفات البقاعي في مختلف العلوم، بين الأدب والنقد والنظم والشعر، والمنطق والقراءات والقواعد والبيان والحكم والتصوف، والتاريخ والتراجم والفقه والأصول والعقائد والأعجاز والحديث[٩]. إذ يذكر البقاعي في آخر كتاب ((سر الروح)) فهرسا بمصنفاته وهي تزيد على خمسين ومئة مؤلف نذكر منها[١٠]:

أولاً: المطبوعة:

١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.

٢. سر الروح.

٣. تنبيه الغبي إلى تكفير ابن العربي[١١].

٤. تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد.

ثانيا: المخطوطة

١. أخبار الجلاد في فتح البلاد.

٢. أسد البقاع الناهسة في معتدى المقايسة في التاريخ.

(٨) ينظر: البقاعي ومنهجه في التفسير: ٤٠ -٤٥.
(٩) المصدر السابق: ٥٩ -٦٢ والأساليب البلاغية في تفسير نظم الدرر: ٨.
(١٠) ينظر سر الروح: ٢٨٦والبقاعي ومنهجه في التفسير: ٦٠ والأساليب البلاغية في نظم الدرر: ٨.
(١١) وفي نظم الدرر ((تنبيه الغبي على تفكير ابن العربي)) ٢٢/ ٤٤٥ وينظر البقاعي ومنهجه في التفسير ٦٠.

٣. الانتصار بالله الواحد القهار.

٤. إظهار العصر لأسرار أهل العصر في التراجم.

٥. الإطلاع على حجة الوداع[١٢].

٦. القارض في تكفير ابن الفارض[١٣].

٧. تدمير المعارض في تكفير ابن الفارض[١٤].

٨. إيضاح السبيل من حديث سؤال جبريل[١٥].

٩. جواهر البحار في نظم سيرة المختار[١٦].

١٠. الجواهر والدرر في مناسبة الآي والسور.

١١. القول المفيد في أصول التجويد.

١٢. لعب العرب بالميسر.

١٣. النكت الوفية بما في شرح الألفية.

١٤. الضوابط والإشارات لأجزاء علم القراءات.

١٥. وقع اللثام عن عرائس النظام في العروض[١٧].

١٦. شرح هداية ابن الجوزي.

وفاته:

توفي شيخنا البقاعي ليلة السبت الثامن عشر من رجب سنة خمس وثمانين وثمنمائة، بعد إن عانى كثيرا من الشدائد، وكان عمره ست وسبعين سنة مليئة بعلوم الكتاب

(١٢) ينظر كشف الظنون: ٢/ ١٩٦٢.
(١٣) ينظر نظم الدرر: ٢٠/ ٤٤٣
(١٤) المصدر السابق: ٢٠/ ٤٣٤.
(١٥) المصدرالسابق: ٢٢/ ٢٤٥
(١٦) ينظر البقاعي ومنهجه في التفسير: ٦١.
(١٧) المصدرالسابق: ٦٢.

المنزّل[١٨].

مدخل:

من الخصائص التي ميزت اللغة العربية هي تعدد معاني حروفها، فتعدد معاني الحروف مكمن أسرار اللغة وسرّ جمالها.

ففي اللغة العربية نرى تغير المعنى في الحرف الواحد تبعاً لما يراد من معنى في سياق الكلام؛ لأنّ معاني الحرف الواحد قد تصل إلى العشرات من المعاني كما هو الحال في (اللام- الباء -من)) وغيرها من حروف المعاني. وهذا دفع العلماء إلى القيام بتتبع هذا الجانب من جوانب اللغة، فأفردوا لها مصنفات تناولوا فيها المعاني والوجوه المختلفة لكل حرف من هذه الحروف(دراسة في حروف المعاني الزائدة: ١).

وقد بدأ الدرس النحوي منذ زمن مبكر من أجل تعرّف أسرار الذكر الحكيم، إذ نسب إلى ((علي بن أبي طالب عليه السلام)) إنّه دفع بصحيفة إلى أبي الأسود الدؤلي جاء فيها: ((الحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل)) (أنباه الرواة على أنباه النحاة: ١/ ٤) وكذلك أشار سيبويه في حديثه عن تعريف الحرف: ((ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل)) (الكتاب: ١/ ٢).

أهمية البحث:

لقد عني الدارسون العرب بـ ((حروف المعاني)) وأفردوا لها مصنفات خاصة بها، فقد لاحظوا أنّها تقع في ضمن حقل دلالي مشترك، فضلاً عن أنّها وسائل الربط في التركيب الذي ينصبّ عليه عمل النحوي، كما عني بها أيضاً أهل الفقه والأصول؛ لأنّ هذه الحروف بالنسبة لديهم تدخل في تحديد الأحكام الأصولية تبعاً لدلالاتها المختلفة، واختلفوا جميعاً في حقيقة دلالاتها على المعنى؛ أتدلّ في نفسها؟. أم في غيرها؟. والغالب أنّها تدلّ على معنى في غيره (الخصائص: ٢/ ٣٧٠ والجنى الداني: ٣٤).

أمّا المحدثون فهم على خلاف إذْ يرى طائفة منهم أنّها كلمات وظيفية تعبر عن العلاقات

(١٨) ينظر الضوء اللامع: ١/ ١٠٧ والبقاعي ومنهجه في التفسير: ١٤.

الداخلية بين أجزاء الجملة، وهي علاقات سياقية لها فعل نحوي أكثر منه لغوي، لذا فإنّ هذه الحروف لا تمتلك معنى معجمياً، بل لها معنى وظيفي عام هو التعلق، ثم تختص تحت هذا العنوان بوظيفة خاصة: (اللغة العربية معناها ومبناها: ١٢٤ -١٢٧ والتطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم: ٧٥).

أمّا الطائفة الأخرى فترى، أنّ الحروف تدلّ على معانيها في نفسها وهي منفردة، فحين تقول ((إلى)) تفهم أنّه بمعنى بلوغ الغاية و ((على)) بمعنى العلوّ، ولكن معناها هذا مقيد بالسياق الذي تردّ فيه، وإنّما وجدت الحروف لتؤدي معاني الألفاظ المتعلقة بها، وليس لتؤدي معناها الذاتي، لأنّه معنى غير مكتمل؛ فهي إذن وسيلة لفهم اللفظ المتعلق بها وليس لفهم معناها الخاص((اللامات دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية: ٥٦).

وقد عرّف الأصوليون الحرف بقولهم: ((هو الذي جاء لمعنى تنعدم خاصية الاسم والفعل فيه، ويظهر المعنى في غيره)) (الإيضاح في شرح المفصل: ٢/ ٢٣٧ وينظر: الأشباه والنظائر في النحو: ٣/ ٢٢).

أمّا الشيخ البقاعي، فكان له رأي في بيان الحرف إذ يقول: ((وهذه الألفاظ عند انعجام معناها تسمّى حرفاً، والحرف طرف الشيء، الذي لا يؤخذ منفرداً وطرف القول الذي لا يفهم وحده، وأحق ما تسمّى حروفاً إذا نظر إلى صورها ووقوعها أجزاء من الكلم، ولم تفهم لها دلالة فتضاف إلى مثلها جزء من كلمة مفهومة تسمّى عند ذلك حرفاً ((نظم الدرر: ١/ ٧٥) وهذا التعريف الذي اشار إليه البقاعي للحرف، هو تعريف قريب من تعريف النحاة، إذ إن الحرف لا يفهم معناه منفرداً إنّما يفهم الحرف إذا كان في نظم الكلم، فالحرف رابط داخل الجملة، لا يتم التأليف من دونه ولا يمكن إذراك معنى الحرف إلاّ من خلال السياق (البحث النحوي عند الأصوليين: ٦٥).

فالحروف لها دور أساس في توصيل الفكرة الصائبة للمعنى ونتطرق في هذا البحث إلى ما يلي:

١. ما هي الروية التي يبديها البقاعي في تفسيره ومدى تأثيرها في تعريف المعاني

الكامنة للآية؟.

٢. ما هي تفاصيل آراء البقاعي حول الحروف ومعانيها وتوثيقاتها من التراث النحوي؟.

لقد تطرق البقاعي في تفسيره إلى مجموعة كبيرة من الحروف موضحاً معانيها من خلال وقوفه عند بيان النص القرآني، ويمكن تقسيم هذه الحروف كما قسمها النحاة إلى:

أ: حروف الجرّ:

إذْ أشار البقاعي إلى حروف الجرّ موضحاً استعمالاتها على حسب السياق الذي تردُ فيه ومن هذه الحروف منها:

١. إلى:

وهو لانتهاء الغاية (الكتاب: ٤/ ٢٣١ والمقتضب: ٤/ ١٣٩ والجنى الداني: ٣٧٤ ومغني اللبيب: ١/ ١٥٦). متابعاً البقاعي في ذلك سابقيه. وقد ورد في قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ .. ﴾[سورة الروم: ٥٠]. فالمعنى: المراد تعظيم النعمة، وأن الرزق أكثر من الخلق، ولم يكن لذلك سبب سوى سبق رحمته لغضبه، و ((عبّر بحرف الغاية إشارة إلى تأمل الأقصى بعد تأمل الأدنى)) (نظم الدرر: ١٥/ ١٢١) وأظهر الاسم الشريف ولم يضمر تنبيهاً على ما في ذلك من تناهي العظمة في تنوع الزرع بعد سقيا الأرض واهتزازها بالنبات واخضرار الأشجار واختلاف الثمار، وتكون الكل من ذلك الماء (نظم الدرر: ١٥/ ١٢٢).

٢. الباء:

من المعاني التي يخرج إليها حرف الباء هو السببية، وأشار أكثر العلماء إلى خروج الباء إلى هذا الاستعمال (المقتضب: ٤/ ١٤٩ ورصف المباني في شرح حروف المعاني: ١٤٢ والجنى الداني: ١٠٢، ومغني اللبيب: ١/ ١٩٧). وقد أشار البقاعي إلى قوله تعالى: ﴿ ...لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[سورة الأعراف: ٤٣] من المعلوم أن ((الباء)) لها معانٍ كثيرة والذي يهمنا معناه السببية في قوله ﴿ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾، فيقول البقاعي: ((لأنه سبحانه جعله سبباً ظاهرياً بكرمه)) (نظم

الدرر: ٧/ ٤٠٤) والمعنى قيل لهم أي تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون بسبب أعمالكم.. لا بالتفضيل (الكشاف: ٢/ ١٠٥).

وتستعمل الباء للقسم ((وهو أصل أحرفِه وخصّت بجواز ذكر الفعل معه)) (مغني اللبيب: ١/ ٢٠٧) وقد أشار البقاعي إلى هذا الاستعمال في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[سورة ص: ٨٢] فالمعنى: كانت هذه الإجابة سبباً؛ لأن يخضع وينيب شكراً عليها، وان يطغى ويتمرد ويخيب لانها تسليط وتهيئة للشر فاستشرف السامع إلى معرفة ما يكون من هذين المسببين، عرف أنه منعه الخذلان من اختيار الإحسان، ويقول البقاعي: ((ويجوز أن تكون الباء للقسم)) (نظم الدرر: ١٦/ ٤٢٦-٤٢٧) وقال القشيري: ((ولو عرف عزته لما اقسم بها على مخالفته)) (نظم الدرر: ١٦/ ٤٢٦ -٤٢٧).

وتستعمل الباء للتوكيد وهي: ((الزائدة وزيادتها في الفاعل واجبة وغالبة وضرورة)) (مغني اللبيب: ١/ ٢٠٧) وقد أشار البقاعي إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ ... قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾[سورة الرعد: ٤٣] إذ يقول البقاعي: ((ومعنى الباء في ((بالله)) -أي الذي له الإحاطة الكاملة -التأكيد؛ لأنّ الفعل لما جاز أن يضاف إلى غير فاعله إذا أمر به أزيل هذا الاحتمال من وجهين: جهة الفاعل وجهة صرف الإضافة)) (نظم الدرر: ١٠/ ٣٦٨) وقال الزجاج: ((دخلت لتضمّن كفى معنى اكتَفِ وهو من الحسن بمكان))(معاني القرآن وإعرابه/ ٣/ ١٢٣ وينظر: مغني اللبيب: ١/ ٢٠٧) وقد جاء في المغني: ((الفاعل ضمير الاكتفاء وصحّة قوله موقوفة على جواز تعلّق الجارّ بضمير المصدر وهو قول الفارسي والرماني))(مغني اللبيب: ١/ ٢٠٧) والواضح من الدلالة بهذا النص، يشهد بتكذيبكم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزاً، وهذا أعلى مراتب الشهادة؛ لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن بأنّ الأمر كما تشهد به، والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بأنّ ما جاءت لأجله، ممّا أنزله فيه من الأصول والفروع والخبر عما كان، ويكون على نحو من

الأساليب ونمط من المناهيج، أخرس الفصحاء وابكم البلغاء وأبهت الحكماء وهو الله تعالى تأييداً وتحقيقاً لدعواه (نظم الدرر: ١٠/ ٣٦٨).

٣. على:

وتستعمل للاستعلاء على المجرور (مغني اللبيب: ١/ ٢٨٣)، وهي كذلك عند الشيخ البقاعي، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[سورة النجم: ٤٥ -٤٧] فالمعنى: لما ساق الله سبحانه وتعالى هذه الأشياء دليلاً على إحاطة علمه، فلزمها أنْ دلّت على تمام قدرته، من ذلك الإقرار حتماً بأنّه قادر على البعث، عبر بما يقتضي أنّه لما تقدم به وعده على جميع ألسنة رسله صار واجباً عليه، بمعنى أنّه لابدّ من كونه لأنّه لا يبدل القول لديه، لا غير ذلك، ((فعبر بحرف الاستعلاء تأكيداً له رداً لإنكارهم إيّاه)) (نظم الدرر: ١٩/ ٧٥).

٤. عن:

وتستعمل للمجاوزة وتعدية الشيء (الكتاب: ٤/ ٢٢٦ والجنى الداني: ٢٦٠ ومغني اللبيب: ١/ ٢٩٤) ولم يذكر البصريون سواه، وهي لدى الشيخ البقاعي كذلك، وجاء في قوله تعالى: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٢٩] فالمعنى: أن الإعطاء لا يكون إلاّ بعد البطش المذل، هذا إذا اريد باليد يد الآخذ، ويمكن أن يراد بها يد المعطي، وتكون كناية عن النفس؛ لأن المقصود الجزية من المال، فالمقصود حتى يعطي كل واحد منهم الجزية عن نفسه، ((وعبّر بـ (عن) التي هي للمجاوزة)) (نظم الدرر: ٨/ ٤٣٥).

٥. في:

وقد أشار ابن هشام خروجه إلى السببية(مغني اللبيب: ١/ ٢٣٧). وقد جاء في نظم الدرر كذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[سورة الأنفال: ٧٢]. يقول البقاعي: ((وقدّم المال، لأنه سبب قيام النفس، وكان في غاية العزة، و ((في)) سببية، أي جاهدوا بسببه حتى لا يصدّ عنه صادّ فتظهر

محاسنه ويسهل المرور فيه من غير قاطع)) (نظم الدرر: ٨/ ٣٣٧) فالمعنى: ولعله عبّر بـ ((في)) إعلاماً بأنّه ينبغي أن يكون متمكناً من السبيل تمكن المظروف من ظرفه حتى يكون الدين غالباً عليه لا يخرج عنه بوجه من الوجوه.

٦. **الكاف:**

الكاف المفردة جارّة ولها عدة معانٍ، ومنها التعليل (مغني اللبيب: ١/ ٣٥٥)، وأشار البقاعي إلى هذا الاستعمال في قوله تعالى: ﴿... فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٩] يقول البقاعي: ((ولمّا أمر سبحانه وتعالى بالذكر عند الأمن علله بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ لأجل إنعامه عليكم بأن خلق فيكم العلم المنقذ من الجهل، فتكون الكاف للتعليل)) (نظم الدرر: ٣/ ٣٧٦) فالمعنى كما أحسن إليكم ما كنتم جاهلية من أمر الشرائع، وكيف تصلون في الخوف وحال الأمن، وذكر أبوحيان الأندلسي تعليقاً على الآية الشريفة، أن ((كما علمكم)) أي كما أنعم عليكم فعلمكم، إذ عبّر بالسبب عن المسبب، وأن الكاف هاهنا للتعليل(البحر المحيط: ٢/ ٢٤٤ ونظم الدرر: ٣/ ٣٧٦).

٧. **اللام:**

ويأتي للتعليل وموافقة ((إلى)) (مغني اللبيب: ١/ ٤١١/ ٤١٢)، وقد أشار البقاعي إلى هذا الاستعمال عند بيانه المعنى العام لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾[سورة آل عمران: ١٩٣] إذ أشار البقاعي إلى قوله تعالى: ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾ مصرحاً بأنّ: ((اللام تصلح للتعليل ومعنى ((إلى)) عبّر بها)) (نظم الدرر: ٥/ ١٥٩) فالمعنى: أنّها تصلح للتعليل، وذلك لما سمعوه من المنادي، وأري الأصح أنّها بمعنى ((إلى)) أي إلى الإيمان كقولك: الحمد لله الذي هدانا لهذا، معناها إلى هذا، وكقول الراجز:

أوْحَى لَهَا القَرَارَ فاستقرتْ وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيات الثُّبَّت

فخلاصة المعنى: ربنا إنّنا سمعنا داعياً يدعو إلى الإيمان والتصديق بك، والإقرار

بوحدانيتك، واتباع رسلك واتباع أمرك ونهيك سبحانك لا إله إلاّ أنت (مجمع البيان: ٢/ ٥٥٧).

٨. من:

ولها معانٍ عديدة يخرج إليها الحرف هي: ((إبتداء الغاية والتبعيض وتفيد بيان الجنس والتعليل والمجاوزة وبمعنى عن ومرادفة للباء...)) (الكتاب: ٤/ ٢٢٤ والمقتضب: ٤/ ١٣٦ وشرح الوافية نظم الكافية: ١٨١، الجنى الداني: ٣١٥ ومغني اللبيب: ١/ ٦٠٨ والبرهان للزركشي: ٤/ ٢٩٤، ورسائل في النحو: ٦٣).

وقد أشار البقاعي إلى معانٍ كثيرة لهذا الحرف، فذكر خروجها إلى ابتداء الغاية في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٣] ويعلق البقاعي على قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِنَا﴾ فيقول: ((ولما كانت جميع الرتب تحت رتبته سبحانه، اثبت حرف الابتداء محقراً لهم) (نظم الدرر: ١٤/ ٤٢٤ -٤٢٥) فالمعنى: ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز من أن ينالهم مكروه من جهتنا، وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم.

وكذلك جاءت ((من)) للابتداء في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ﴾[سورة الحج: ٥]. فيقول البقاعي: ((ولما كان السياق للقدرة على البعث الذي هو التحويل من حال الجمادية إلى ضده بغاية السرعة، أثبت ((من)) الابتدائية الدالة على قرب زمن الجهل من زمن العلم)) (نظم الدرر: ١٣/ ١١ أي فيصير إلى حالة الطفولة ضعيف البنية سخيف العقل، ولا زمان لذلك محدود، بل ذلك بحسب ما يقع في الناس، ويأتي حرف ((من))؛ للدلالة على التبعيض، وهذا ما أشار إليه البقاعي في معرض تناوله قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: ٢١٣] إذ يقول البقاعي: ((ويجوز أن تكون ((من)) تبعيضية لما عموا عنه من الحق الذي نزل به الكتاب الذي جاء به النبيون)) (نظم الدرر: ٣/ ٢٠٢ -٢٠٣) والمعنى: إنّ

الله تعالى هدى الذين آمنوا في مورد اختلاف الناس في الحق الذي هو الدين والمعارف الإلهية بعلمه وإرادته، فالهداية الحقيقية التي هي أشرف المقامات الإنسانية وأجل المعارج العرفانية تنتهي اليه جلت عظمته (مواهب الرحمن: ٣/ ٢٨٦)، وقيل: إنّ معنى بأذنه بلطفه، فعلى هذا يكون في الكلام حذف، أي فاهتدوا بأذنه، وإنّما قال هداهم لما اختلفوا فيه من الحق، ولم يقل هداهم للحق فيما اختلفوا فيه، ويعلق أبو حيان الأندلسي: على قوله ((من الحق)) أي الذي تبيّن المختلف فيه ((ومن)) تتعلق بمحذوف؛ لأنّها في موضع الحال من ((ما)) فتكون للتبعيض(البحر المحيط: ٢/ ١٣٨)، وعلى هذا الكلام يكون البقاعي موافقاً لرأي أبو حيان في عدّ (من) للتبعيض في النص القرآني.

وكذلك ما جاء في الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة الأحقاف: ٣٥] يقول البقاعي: ((وهو ظاهر جداً إنّ ((من)) للتبعيض، والمراد بهم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيس قواعدها وتثبيت معاقدها)) (نظم الدرر: ١٨/ ١٩٠) فالمعنى إن الآية المباركة تدلّ على الفطرة الإنسانية وإن كانت سبب الاتحاد في برهة من الدهر إلاّ إنّها غير كافية في رفع الاختلاف والتنافر بين الناس، والخلاف في تعيينهم كثير منتشر هذا القول، وأشهر ما فيه على أن ((من)) للتبعيض وهو الظاهر، وهذا ما أشار إليه البقاعي، والذي يقصد بعض الرسل، وقد نظم بعضهم في قوله:

أولوا العزم نوح والخليل بن آزر وموسى وعيسى والحبيب محمد

(نظم الدرر: ١٨/ ١٩٠ -١٩١)

وقال ابن الجـــوزي: ((من للتجنيس لا للتبعيض وفي قول أنهم جميع الأنبياء إلاّ يونس عليه السلام.

ونضيف إلى تلك المعاني أيضاً خروج الحرف؛ لبيان الجنس في قوله تعالى: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴾ [سورة الشعراء: ١٦٦] يقول البقاعي: ((وهنَّ الإناث على أنّ ((مِنْ)) للبيان)) (نظم الدرر: ١٤) فالمعنى: هو بيان جنس

الأزواج، وهو أخص من الإناث، ويجوز أن تكون من هنا للتبعيض ويكون المخلوق كذلك.

وتأتي (من) لتوكيد العموم، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة فاطر: ٣] إذ يقول البقاعي: ((ولما كان الاستفهام بمعنى النفي أكده بـ ((من)) فقال: ((من خالق)) ولما كانت من للتأكيد فكان ((خالق)) في موضع رفع)) (نظم الدرر: ١٦/ ٢٢) وفي هذا الموضع تكون من زائدة، فالمعنى: أمر سبحانه بذكر نعمته وأكد التعرف بأنّها منه وحده على وجه يبيّن عزته وحكمته، فقال منبهاً لمن عقل وموبخاً من حجد، وهو جواب قطعاً لا، بل هو الخالق.

ب: حروف العطف:

حروف العطف: ((هي الحروف التي يشترك بها بين المتبوع والتابع في الإعراب)) (الإيضاح: في شرح المفصل: ٢/ ٢٠٢) وهي: ((الواو -الفاء -أو -ثم...) وقد أشار البقاعي إلى طائفة من هذه الحروف.

١. أو:

وقد أشار النحاة إلى أنّها تستعمل في التقسيم (الكتاب: ٣/ ١٨٤ والجني الداني: ٢٤٥ ومغني اللبيب: ١٣٨)، وقد أشار البقاعي إلى هذا الاستعمال في قوله تعالى: ﴿ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾[سورة لقمان: ١٦].

فالمعنى: لما نبّه على إحاطة علمه سبحانه وإقامته للحساب، تأكيداً إلى ذكره تعالى والحث على الإقبال إليه وإرشاد للإنسان إلى أنّه ينبغي أن يكون على ذكره تعالى دائماً، والآية تدلّ على أنّ الحسنة أو السيئة، وما كان أصغر من مثقال ذرة، فإنّ سبحانه وتعالى يعلمه سواء أكان في السموات أم الأرض ((وأعاد أو نصّاً على إرادة كل منهما على حدته، والجار تأكيداً للمعنى)) (نظم الدرر: ١٥/ ١٧٢).

٢. ثُمَّ:

ثم حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور: ((التشريك في الحكم والترتيب والمهلة)) (مغني

اللبيب: ١/ ٢٢٩) وقد أشار البقاعي إلى استعمالها بمعنى التراخي، وهو ما أطلق عليه ابن هشام المهلة، وقد ورد هذا الاستعمال في قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾[سورة هود: ٥٢].

المقصود من النص، بأنّ تطلبوا ستر الله لذنوبكم، ثم ترجعوا إلى طاعته بالندم والإقلاع والاستمرار بالتوبة ((أشار إلى علو رتبة التوبة بأداة التراخي)) (نظم الدرر: ٩/ ٣٠٨ و١٩/ ٤٥).

٣. **الفاء:**

يخرج حرف الفاء إلى معانٍ عديدة بحسب سياقات الجملة التي ترد فيها، من هذه المعاني هي(أصول السرخسي: ١/ ٢٠٨، الإيضاح في شرح المفصل: ٢/ ٢٠٥، ومغني اللبيب: ١/ ٣٢٤وهمع الهوامع: ٥/ ٣٢٣والأشباه والنظائر: ٣/ ١٨٤والفاءات في النحو: ١٨):

١. التعقيب: وهو أصل معناها، وأن يكون المعطوف بها متصلاً بلا مهلة.

٢. السببية: وهو أن يكون المعطوف سبباً في المعطوف عليه.

وقد أشار البقاعي إلى هذين الاستعمالين، إذ يعلق على استعمالها في التعقيب في قوله تعالى: ﴿ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[سورة النحل: ٣٦]. ويقول البقاعي: ((وعبر هنا بالفاء المشيرة إلى التعقيب دون تراخٍ؛ لأنّ المقام للاستدلال المنقذ من الضلال الذي يجب المبادرة إلى الإقلاع عنه)) (نظم الدرر: ١١/ ١٥٨) فالمعنى: فانظروا كيف حقت عليهم العقوبة وحلّت بهم فلا تسلكوا طريقهم فينزل بكم مثل ما نزل بهم.

وكذلك في الاستعمال نفسه، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[سورة الشعراء: ٢٠١ -٢٠٢] فالمعنى: ولما كان إتيان الشر فجأة أشر وكان أخذه لهم عقب رؤيتهم له من غير مهلة ((دلّ على ذلك

مصوراً لحاله دالاً بالفاء على التعقيب)) (نظم الدرر: ١٤/ ١٠٢) وهذا ما دل عليه السياق من لفظة (بغتة)؛ لأن البعث الإتيان على غفلة حقق سبحانه وتعالى ذلك بأنّهم لا يشعرون بقدومه.

أمّا الفاء التي استعملت للسببية، فقد وردت في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[سورة الأعراف: ١٠٦ -١٠٧].

وصرّح البقاعي قائلاً: ((ولما ساق هذا الطلب مساقاً دالاً على أنّه شاكٍ في أمره، أخبر تعالى أنّه فاجأه بإظهار الآية دالاً على ذلك بالفاء المسببة المعقبة من غير مهلة)) (نظم الدرر: ٨/ ٢٢ و ١٨/ ١٦٨) فأظهر سبحانه وتعالى لهم الثعبان وهو ظاهر في كبره وسرعة حركته بحيث أنّه لشدة ظهوره كأنّه ينادي الناس فيظهر لهم أمره، وهو موضع صدق من تسبب عن فعله في جميع مقالته.

٤. الواو:

وقد استعمل في العطف، والأصل في الواو أن تكون عاطفة مفيدة معنى الجمع والاشتراك، واستعمالها بغير هذا المعنى يكون من باب المجاز، وحمل اللفظ على الحقيقة أولى أن لم يصرفه صارف إلى غيره. (الجنى الداني: ١٨٨ ومغني اللبيب: ١/ ٦٦٦ وهمع الهوامع: ٢/ ١٢٩ وأثر الدلالة النحوية).

وقد أورد البقاعي هذا الاستعمال في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٧]. والمراد من النص القرآني، الإخبار بهلاكهم على مالهم من المكانة العظيمة؛ ليتعظ بهم من سمع أمرهم، أتبعهم من كان مشاركاً لهم في التكذيب التي أهلكها سبحانه وتعالى كأهل الحجر وسبأ ومدين وقوم لوط وفرعون وأصحاب الرس وثمود وغيرهم، دالا على إحاطة قدرته بإحاطة علمه (ولما كان الموعوظ به الإهلاك ذكر مقدماً، فتشوق السامع إلى السؤال عن حالهم في الآيات فقال عاطفا بالواو التي لا يمنع معطوفها التقدم على ما عطف عليه)) (نظم الدرر: ٨/ ١٧٤)

(وصرّفنا الآيات) أي الحجج البيّنات وكررناها موصولة مفصلة مزينة محسنة على وجوه شتى من الدلالات، خالصة من كل شبهة (نظم الدرر: ٨/ ١٧٤).

وتأتي الواو بمعنى (مع) وهذا ما صرح به البقاعي عند وقوفه على قوله تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [سورة يونس: ٧١] بقوله: ((والواو بمعنى (مع) في قوله (وشركاءكم)؛ ليدلّ على أنّه لا يخافهم، وإن كانوا شركاءهم أحياء كائنين من كانوا وكانت كلمتهم واحدة لا فرقة فيها بوجه)) (نظم الدرر: ٩/ ١٦٣) فتقدير المعنى على قول البقاعي، فأعزموا على أمركم مع شركائكم واتفقوا على أمرٍ واحدٍ من قتلي وطردي ولا تضطربوا فيه فتختلف أحوالكم فيما تلقونني به. وقد اختلف العلماء في قوله (وشركاءكم) فمنهم من قرأ بالرفع وهو يعقوب على تقدير ((فأجمعوا أمركم وشركاءكم) رفعه على العطف على الضمير في أجمعوا وساغ عطفه على الضمير من غير توكيد، وقرأ الباقون ((وشركاءكم)) بالنصب، على إضمار فعل كأنه قيل: ((وادعو شركاءكم)) (مجمع البيان: ٥/ ١٢٣). وذهب المحققون إلى أنّ مفعول معه وتقديره مع شركاءكم (مغني اللبيب: ١/ ٦٧٦) وهذا ما ذهب إليه البقاعي الذي عدّ الواو بمعنى (مع).

دلالة التعبير بالحروف:

إنّ الصفات الجوهرية للنظام النحوي لا يمكنها أن تظهر إلاّ من خلال العلاقات القائمة بين تمثيلات الصوت من جهة، وتمثيلات المعنى من جهة أخرى؛ لأنّ ضبط القواعد النحوية هو الذي نتطلع إليه حتى ينبغي أن ينسجم ويتناسق مع السياق الذي يرد فيه: (قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث: ٢٤١).

وقد مرّ سابقاً بيان دلالة الحروف، وأنّ جميع الحروف ذات معانٍ متعددة لا يمكن تميز معانيها بنفسها إلاّ داخل النظم؛ لأنّ الحرف أداة رابطة في الجملة، ولا يمكن تبادل الحروف في النظم، أي بعبارة أخرى لا يمكن وضع حرف مكان آخر، ويبقى المعنى نفسه، فعند تبادل الحروف يتغير المعنى حتى وإن كان داخل النظم؛ لأنّ لكل حرف

خاصية خاصة به في التعبير في النظم تختلف عن دلالة الحرف الآخر، فكل حرف دلالة في التعبير في هذا المكان.

وقد أشار البقاعي إلى دلالة التعبير بهذا الحرف دون غيره مبيناً المعنى العام للنص، ومن المواضع التي أشار إليها هي:

١. التعبير بمن دون عن:

وقد ورد هذا التعبير في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[سورة البقرة: ٩٦] ويعلّق البقاعي على قوله: (من العذاب) قائلاً: ((وعبّر بمن دون عن إعلاماً بأنّهم لم يفارقوا العذاب دنيا ولا آخرة، وأن لم يحسوا به في الدنيا)) (نظم الدرر: ٢/ ٦٤) فكان التعبير بحرف الجر ((من)) أكثر ثباتاً ؛ لأن العذاب الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى للكفار والمنافقين لهم في الدنيا والآخرة، ولو عبّر سبحانه وتعالى بـ ((عن)) لكان العذاب غير مستمرٍ لهم، والدليل على ذلك قوله ((بمزحزحه)) والزحزحة هي الإزالة عن المقر والنتيجة عنهم لقوله ﷺ: ((من صام يوماً في سبيل الله زحزح الله وجهه عن النار سبعين خريفاً)) (مواهب الرحمن: ١/ ٣٣٥) أي ليس طول العمر من حيث هو موجباً للخروج عن العذاب، بل المناط كله إنّما هو العمل الصالح واكتساب الحسنات وترك السيئات، وفي الآية الكريمة دلالة على أنّ الحرص على طول البقاء لطلب الدنيا ونحوه مذموم، وإنّما المحمود طلب البقاء للازدياد في الطاعة وتلافي الفائت بالتوبة والإنابة ودرك السعادة بالإخلاص في العبادة. (مجمع البيان: ١/ ١٦٦).

٢. الباء دون على:

وأشار البقاعي إلى هذا التعبير في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٧] وممكن التعبير في قوله تعالى هو ((به)) فيقول البقاعي: ((عبر بالباء سلوكاً لغاية الإنصاف دون ((على)) المفهمة للاستعلاء بغاية البيان)) (نظم الدرر: ١٣/ ١٩٨) فالمعنى: ولما كان المراد ما يسمّى برهاناً

ولو على أدنى الوجوه الكافية، فإنّه إذا اجتهد في إقامة برهان على ذلك ولم يجد، بل وجد البراهين كلها قائمة على نفي ذلك، داعية إلى الفلاح باعتقاد التوحيد والصلاح، وهذا المراد في التعبير بالباء في غاية الإنصاف، ولا يجوز أن يقوم على شيء غيره برهان، ولو عبّر بذلك لفهم الاستعلاء في ذلك بغاية البيان(نظم الدرر: ١٣/ ١٩٨.

٣. إلى دون على:

وقد جاء هذا التعبير في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٧] فالمعنى: إعلاماً بأنّ مرادهم كونه في الظهور لهم على غير الهيئة التي يخبرهم بها من تجدد نزول الملك عليه في كل حين، أو لأن الملك يمكن أن يكون على حالة المصاحبة له وإنّما لا يتحول عنها بصعود إلى السماء ولا غيره ((وهذا سرُّ التعبير بـ ((إلى)) دون ((على)) التي هي للتغشي بالوحي)) (نظم الدرر: ١٣/ ١٤٤).

الخاتمـــــــــة:

١. إن تفسير البقاعي هذا جاء فريداً من نوعه حيث لم يصنف قبله مثله على نمطه فكان البقاعي هو الرائد الأول في هذا الميدان.

٢. للبقاعي إلمام واسع باللغة العربية من مختلف جوانبها البلاغية والنحوية والصرفية، مع إلمام واسع بآراء النحويين والأصوليين في مختلف المسائل النحوية والفقهية.

٣. كشف البقاعي عن الفروق اللغوية الدقيقة للحروف جارة كانت أو عاطفة، معتمداً في كثير من الأحيان التطبيق والتأصيل وقد أورد البحث نماذج منها.

٤. أظهر لنا البقاعي عناية فائقة بدلالة الحروف المستخدمة بدل الأخرى وكشف بعض الأسرار الكامنة في هذا المجال.